الباب الحادي عشر

الملاحاة والمفاخرة

(١)
الملاحاة

أ- الملاحاة في اللغة

إذا نثرتَ نقائضَ العصر الأموي، ونقَلتها من دواوين الشعراء إلى كتُب الأدب تحصَّل لك ما يشبه الملاحاةَ والمفاخرة، لأن النقائضَ عند التحقيق ليستْ إلَّا مثالبَ يَرْمي بها الشاعرُ خصمَه، ومناقبَ يَدلُّ بها عليه. فهو في الأُولى مُلَاحٍ، وفي الثانية مُفاخِر، وخوضُه في إحداهما يُفْضي به إلى الأخرى في أكثر الأحيان. ولهذا لم نجد بُدّاً من الجمع بين الغرضين في باب واحد.

قال ابنُ منظور[١]: «الملاحاةُ: الملاومةُ والمباغضةُ... وفي الحديث: نُهِيت عن مُلاحاة الرجال، أي مقاولتهم ومُخاصمتهم. هو من لَحَيْتُ الرجلَ أَلْحاه لَحْياً إذا لمتَه وعذلتَه. ولاحيتُه مُلاحاة ولحاءً إذا نازعتَه. وفي حديث ليلة القَدْر: تلاحى رجلان، فَرُفِعتْ. وفي حديث لقمان: فَلحْياً لصاحبنا لحْياً، أي لَوْماً وعذْلاً... ولاحى الرجلَ مُلاحاةً ولحاءً: شاتمه. وفي المثل: مَنْ لاحاك فقد عاداك».

---

(١) اللسان/ لحا.

إنَّ الملاحاة[1] المنهيَّ عنها في الحديث الأوَّل تعني المنازعةَ والمعاتبةَ، والتلاحي في الحديث الثاني يعني التخاصُمَ والتشاتم، واللحيُ في الثالث يعني اللومَ، غير أن الزمخشريَّ فسَّره تفسيراً آخر، فقال: «لحياً: من لحيتُ العود بمعنى لحوته [نزعت لحاءه]، وهو دعاءٌ عليه بالهلاك. والتكريرُ للتأكيد».

وهذه المعاني، على ما فيها من اختلاف في الفروع، تأتلف في الأصل، وتجتمعُ في الدلالة على إيذاء الإنسان باللسان، والإساءةِ إليه باللوم أو الشتم، أو الدعاء عليه بالبوار والدمار. ولذلك نُهِيَ المسلمون عن الملاحاةِ عامَّة أيّاً كان شكلُها ومعناها، لأنها لا تخلِّف في نفوس المتلاحين غير العداوة والبغضاء.

ب- أنواع الملاحاة ومعانيها

حرص النبي ﷺ غاية الحرص على أن يستلَّ السخائمَ من نفوس العرب، وأن يغسل قلوبهم من أوضار الإحن، وأن يجمعهم على كلمة سواء، فائتلفوا تحت رايته ورعايته طوال العهد النبوي، فلما انقضى عصر النبوة والخلافة الراشدة أثار الأمويون نعرات الاختلاف مرة أخرى، فاستيقظت سفاهة الجاهلية، وراحت تطلق ألسنتهم بالتلاوم والتشاتم، كأنهم لم يقرؤُوا قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١٠٤/١] وقوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ٤٩/١١] فهمزوا ولمزوا، وسخروا ونبزوا، وفخروا وغمزوا بأساليب منكرة.

سلكَ التلاحي في العصر الأمويّ مسالكَ عديدة، بعضُها سياسيّ، وبعضُها قبليّ، وبعضُها أخلاقي. ولمجانبة الإمعان في التقسيم والتفريع جمعنا الفروع الكثيرة في قسمين يكادان ينتظمان هذه الأنواع كلَّها، وهما الملاحاةُ السياسية، والملاحاةُ الاجتماعية، وبين القسمين مساربُ، قد تنسرب منها بعضُ المعاني من قسم إلى قسم، فتختلط السياسة بالاجتماع، ويكون التقسيم على الأعّم الأغلب.

---

(١) الفائق ١/٧٦.

١) الملاحاة السياسية

لم يعرف العصر الأموي من صعود معاوية بن أبي سفيان إلى سقوط مروانَ بن محمد فترةً من الهدوء والطمأنينة. إذْ كان الصخبُ السياسي أوضحَ السمات التي اتَّسم بها هذا العصرُ المتفجِّر بالأحداث، العامرُ بالاختلاف، المصطرع الأحزاب، الكثيرُ الزعماء والقادة من مؤيِّدين ومعارضين. إذا أُغْمِدت السيوفُ- وقلَّما تُغْمد - شُهرت الألسنةُ. وإذا كفَّ المتحاربون عن القراع في ميادين الصراع نهدوا إلى التلاحي في مجالس الوُلاة والخلفاء، فهم أبداً مُسْتنفرون إمّا للاقتتال، وإمّا للاختصام، حتى غدت الملاحاةُ السياسيةُ ضرباً من ضروب الرياضة الخطرة، لأنها قد تبدأ بإثارةِ الضغائن، وتنتهي بإراقة الدماء.

وكان بين الولاة من يمارس هذه الرياضةَ القاتلة لكي يروي ظمأه إلى الدماء، ويفتكَ بأشراف العرب، إذْ يستثير من يريدُ قتله ليحملَه على نقد الأمويين، ويقيمَ الحجة عليه، ويقهرَه بالسيف إذا أعياه قهرُهُ بالعقل. والكثرةُ الكاثرة من ضحايا هذه الرياضة وفرائسها كانت من أكرم خلق الله على الله، وهم أهلُ البيت، ومَنْ والاهم ممَّن كانوا يستعذبون الموت في سبيل الدفاع عن الطالبيين.

ومن هذا الضرب ملاحاةٌ بين مسلم بن عقيل رسول الحسين رضي الله عنه إلى الكوفة وعبيد الله بن زياد والي العراق ليزيد بن معاوية، رواها الطبريُّ في أحداث سنة ستين. ومنها[1]:

«قال ابن زياد لمسلم: إيه يا بن عقيل! أتيْتَ الناسَ، وأمرُهم جميعٌ، وكلمتُهم واحدةٌ، لتشتتهم، وتفرِّق كلمتَهم، وتحملَ بعضهم على بعض.

قال: كلَّا، لستُ أتيت، ولكنَّ أهلَ المصر زعموا أن أباك قَتَل خيارهم، وسَفك دماءَهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمرَ بالعدل، وندعو إلى حكم الكتاب.

قال: وما أنت وذاك يا فاسق!؟ أو لم نكن نعملُ بذاك فيهم إذ أنت بالمدينة تشربُ الخمر؟

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٢١٢.

قال: أنا أشرب الخمر؟ والله، إن الله ليعلمُ أنك غيرُ صادق، وأنك قلتَ بغير علم، وأني لست كما ذكرتَ. وإن أحقَّ بشرب الخمر مني، وأوْلى بها من يَلَغُ في دماء المسلمين ولْغاً؛ فيقتلُ النفسَ التي حرَّم الله قتلها، ويقتلُ النفسَ بغير النفس، ويسفكُ الدمَ الحرام، ويقتلُ على الغضب والعداوة، وسوء الظن، وهو يلهو ويلعبُ، كأنْ لم يصنعْ شيئاً.

فقال له ابنُ زياد: يا فاسقُ، إن نفسك تمنِّيك ما حالَ الله دونه، ولم يَرك أهلَه.

قال: فمن أهلهُ يا بن زياد؟

قال: أميرُ المؤمنين يزيد.

فقال: الحمدُ لله على كل حال. رضينا بالله حكَماً بيننا وبينكم.

قال: كأنك تظنُّ أن لكم في الأمر شيئاً.

قال: والله ما هو بالظنِّ، ولكنه اليقين.

قال: قتَلني الله إنْ لم أقتلْك قِتْلةً لم يُقْتَلْها أحدٌ في الإسلام.

قال: أَمَا إنك أحقُّ مَنْ أحدث في الإسلام ما لم يكن فيه، أَمَا إنَّك لا تدعُ سوءَ القِتْلة، وقُبْح المُثْلة، وخبثَ السيرة، ولُؤْمَ الغَلَبة. ولا أحدٌ من الناس أحقُّ بها منك».

قال الطبري: «وأقبل ابن سمية يشتمهُ، ويشتم حسيناً وعليّاً وعقيلاً. ومُسْلمٌ لا يكلِّمه. ثم قال: اصعدوا به فوق القصر، فاضربوا عنقه، ثم أَتْبعوا جَسَده رأسَه».

وأسوأُ ما في هذا الضرب من الملاحاة التحريشُ والتحريضُ، وإشلاءُ الأقوياء على الضعفاء. فأعوانُ السلطان - وأكثرهُم من أهل المَلَق والنفاق- يتخذون شتمَ الناس وسيلةً تُقرِّبهم إلى الخليفة زلفى، فيتخيَّرون من حامت حولهم الشبهات أو أُخذ عليهم جنوح، ويلاحقونهم ليجعلوا مصائب غيرهم مكاسب لهم، على النحو الذي يتراءى لك فيما لاحى به عمرُو بن العاص عبدَ الله بن هاشم بن عتبة صاحب الراية في جيش عليٍّ بصفين.

ذكر ابن عساكر[1] أن عبدَ الله هذا أُدْخِل مقيَّداً على معاوية، وعمرُو بن العاص عنده.

(١) مختصر تاريخ دمشق ٤/ ١٢٢.

«فقال معاويةُ لعمرو: أتعرفُ الرجلَ الماثل بين يديك- وكانت الشمسُ قد لوَّحت عبد الله، وغيَّرت لونه؟ -». قال عمرو: لا، يا أميرَ المؤمنين. فأخبره معاوية.

قال عمرو: عرفتُ، يا أمير المؤمنين، الضبَّ المُضبَّ[١]. فاشْخَبْ[٢] أوداجَه على أَثْباجه[٣]، فإنه إن أفلت من حبالك بعد أن زُمَّتْ[٤]، ومن أقرانك[٥] بعد أن حُزِمت ليحملنَّ عليك جيشاً، تحيا فيه أصائلُه، ويكثر فيه صهيلُه ودواغلُه[٦]. فإن العصا من العُصَيَّة، ولا تلدُ الحيةُ إلا حيَّةً. وإنَّما مثلُه يا أمير المؤمنينَ كما قال الشاعر:

أمامةُ قد حَلَلْتِ بلاد قومٍ هم الأعداءُ والأكبادُ سودُ
همُ إن يأخذوني يُقتِّلوني ومَنْ أثقفْ[٧] فليس له خلودُ

فقال عبدُ الله بن هاشم: فأين كنت من ذلك يا بنَ الأبتر، يوم تلوذُ بعاتق الدماث[٨]، وتطيرُ مع الغُداف[٩] يوم كسرتك بصفّين، وأنت كالأَمَة السوداء، لا تمنعَ يدَ لامس؟».

وإذا كان إشلاءُ الأقوياء على الضعفاء أسوأَ ما في الملاحاة لتجرده من النزعة الإنسانية، فإن أحسن ما فيها الشجاعة الواثقة التي تدفع غطرسة الغالب بحق المغلوب، وتفل حدّ السيف بمضاء الحجة، وتفنِّد هجوم الحاكم بدفاع المحكوم.

من يقرأ ملاحاةً من هذا النمط يشعرْ أنه يُصغي إلى مرافعة تصطرع حججُها في محكمة عليا، أو نقاش يحتدم جدالُه في مجلس شورى، فتتصادمُ الآراءُ والأهواء، والشرائعُ والمنافع، والحقائق والأباطيل، والحقوقُ والمظالم. حينئذٍ

(١) المضمر العداوة.
(٢) قطع.
(٣) ج ثبج: الوسط وما بين الكاهل إلى الظهر.
(٤) ربطت وشدت.
(٥) حبالك.
(٦) دواهيه.
(٧) أظفر.
(٨) السهول من الأرض.
(٩) الغراب.

يخرج القارئُ من الملاحاة بصورة مشرقة من صور الحرية السياسية التي ترنو إليها الشعوب في كلّ عصر ومصر.

كان قيس بن سعد الخزرجيُّ الأنصاريُّ [ت: ٦٠هـ] من دهاة العرب وفصحائهم وأجوادهم، ومن جلَّة الصحابة المقرَّبين إلى رسول الله ﷺ. ولاه عليٌّ حكم مصر، وأشهده معه يومَ صفين، فلمَّا آل الأمر إلى معاوية، دخل عليه قيسٌ، ومعه وفد من الأنصار. فدارتْ بينهما ملاحاة سياسية قيّمة، إليك نصَّها، كما رواها الإمامُ الذهبي[١]:

«قال معاويةُ: يا معشر الأنصار، بمَ تطلبون ما قِبَلي؟ فوالله لقد كنتم قليلاً معي، كثيراً عليَّ. وأفللْتُم حدّي يومَ صفين، حتى رأيتُ المنايا تلظّى في أسنتكم. وهجرتموني، حتى إذا أقام الله ما حاولتم ميلَه قلتم: ارْعَ فينا وصيَّةَ رسولِ الله ﷺ. هيهاتَ، يأبى الحقينُ العِذرة[٢].

فقال قيس: نطلبُ ما قِبَلَك بالإسلام الكافي به الله ما سواه، لا بما تمتُّ به إليك الأحزاب.

فأمَّا عداوتنا لك، فلو شئت كَففْتها عنك.

وأمَّا الهجاء فقولٌ يزول باطلُه، ويثبتُ حقُّه.

وأمَّا استقامةُ الأمر عليك فعلى كُرْه منا.

وأمَّا فلُّنا حدَّك فإنا كنا مع رجل نرى طاعته لله.

وأمَّا وصيةُ رسول الله ﷺ بنا فَمَنْ آمن به رعاها.

وأمَّا قولُك: يأبى الحقينُ العِذْرة، فليس دون الله يدٌ تحجزُك، فشأنَكَ.

فقال معاوية: سَوْءةً، ارفعوا حوائجكم».

إن اعتزاز الحاكم بسلطانه يشحذ حدَّ لسانه، فيستطيلُ على ذوي الحسب، ويعنفُ بأولي الفضل، متوهِّماً أن سلطته مانعتُه من غضب العرب. والعربُّي الأبي متى اسْتُغضِب غضب، فردَّ على الاستطالة والتعنيف بأطول وأعنف. ومعاويةُ بن أبي سفيان سلك هذا المسلكَ فيما لاحى به وجوهَ بني هاشم، فأتاه

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ١١١.

(٢) هذا مَثَل، يضرب للرجل يعتذر ولا عذر له، الحقين: اللبن المحقون في الوطب.

الردّ حمماً متضرِّمة؛ تحرق كل ما تقع عليه. غير أن حلم معاوية أطفأ شواظ الجواب ببرودة الأعصاب، وتغمد نصال الرَّد بأغماد الأناة، ولولا حلمُه وأناته لانقلبت الملاحاةُ إلى قتال وقتل، على النحو الذي آلت إليه ملاحاة ابن زياد ومسلم.

ذكر ابن عساكر[١] أن عبدَ الله بن عباس ومعاوية بن أبي سفيان تلاحيا أمام عبد الله بن جعفر، والفضلِ بن عباس بن أبي لهب، وكلاهما من بني هاشم.

«فقال معاوية: إن بابي لكم لمفتوح، وإن خيري لكم لممنوح، فلا تقطعوا خيري عنكم، ولا [تغلقوا][٢] بابي دونكم. فقد نظرتُ في أمري وأمركم، فرأيت أمراً مختلفاً. إنكم ترون أنكم أحقُّ بهذا الأمر مني، وأنا أحقُّ به منكم. فإذا أعطيتكم بعضَ حقوقكم قلتم: أعطانا أقلَّ من حقنا، وقصَّر بنا دون منزلتنا. فصرتُ كأني مسلوب، والمسلوبُ لاحقّ له. فبئس المنزلةُ نزلت بها منكم، ونعم المنزلةُ نزلتم بها مني.

قال له عبدُ الله بن عباس: ما ههنا مسلوبٌ غيرنا، إذْ كان الحقُّ حقَّنا دون الناس. والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناك، ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه، ولئن قطعتَ خيرك عنا، إن الله عزَّ وجل لأرحمُ بنا منك، ولئن غلقت بابك عنا لنكرمنَّ أنفسَنا عنك. والله ما سألنا قطُّ عن خلَّة، ولا أحفينا في مسألة. وإن مِنْ ضَعَةِ الدين وعظيم الفتنة في المسلمين قَرْعنا بابك، وطلبنا ما في يدك. فأمَّا هذا الفيءُ فليس لك منه إلّا ما لرجل من المسلمين. ولنا في كتاب الله حقَّان: حقُّ الفيء، وحقُّ الخمس. فالفيءُ ما اجْتُبيَ، والخمسُ ما غُلِبَ عليه. فعلى أيّ الوجوه جرى منك أخذناه، وحمدنا الله عليه. ثم لم يخرجك الله من خيرٍ جرى على يديك. ولولا حقُّنا في هذا المال لم نأتِك».

ولعلَّك أدركت من النصوص التي وقفناك عليها أن مقارنة الملاحاة بالنقائض له ما يسوِّغه، غير أن أغراض الملاحاة تبقى أرقى من أغراض النقائض، لأنها تضع بين يديك أفكاراً متنوعة، يتصل بعضها بأحداث التاريخ، ويصور بعضها الاختلاف في الخلافة، ويترجم بعضها طرائق الدولة في جباية الأموال وإنفاقها، ويكشف بعضها عن علاقة الشعب بالدولة.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٠/ ٢٨١.

(٢) في المختصر وردت «ولا بابي».

والنقائض قد تنطوي على هذه الأغراض، لكنها تُصاغ بخيال الشعراء، والخيالُ يضخِّم الأفكار، ويبالغُ في التعبير، فيفتقرُ المنظوم إلى واقعية المنثور، ويطغى عليه النَّفج والغلوُّ، ويخالطه الادِّعاء والافتراء.

٢) الملاحاة الاجتماعية

ربَّما كانت الملاحاةُ الاجتماعية أقربَ إلى النقائض من الملاحاة السياسية، لأن المحورَ الذي تدور حوله معانيها يوشكُ أن يكون مِحْورَ النقائض، ولأن المعاني التي يتقارضُها المتلاحون مزيجٌ من شتم وذم، وتحقير وتعيير، وغمز ولمز، وسُخر من الخَلْق والخُلُق، وطعن في الحَسَب والنسب.وربَّما خلطوا بهذه المعاني شيئاً من الفخر، لكي يدحضوا ما يُرْمَون به من رذائل، بما يزعمون لأنفسهم من فضائل.

وإذا كانت المُلاحاةُ السياسيةُ رياضةً خطرة كالمبارزة بالسيوف، واصطياد الضواري، فإن الملاحاةَ الاجتماعية رياضةٌ قذرة لا خطرة، لأنها تنكأُ من القُروح ما اندمل، وتوقظ من الإحَن ما غفا، وتُجرى على الألسنة من السباب ما يُخزي النِّدَّين، ويعودُ بالإذلال على الغالب والمغلوب، فيخرجُ الطرفانِ مُسَفَّهيْنِ مشوَّهَيْن كما يخرجُ المتصارعان من حلبة المصارعة الحرَّة.

ومن سفاهة المتلاحييْن انصياعُهما لما يأمرُهما به الأمراء، إذْ يستجيبان للتهويش والتحريش، والاستعداد والإشلاء، ثم يتذامَّان كما تنتتف الديكة إذا أُرسل بعضُها على بعض، فيفتضحان على مرأى من الناس ومسمع، كأنهما كلبا هراش، أو كبشا نطاح. حتى كبار الشعراء لم يأنفوا من هذا الافتضاح، ومنهم جرير والأخطل.

قال ابن عساكر[1]: «دخل جريرٌ على بشر بن مروان، والأخطلُ جالسٌ عنده.

فقال له بشر: أتعرفُ هذا يا أبا حزرةَ؟ قال: لا، فمن هو؟

قال الأخطلُ: أنا الذي شتمتُ عرضَك، وأسهرتُ ليلك، وآذيتُ قومك، أنا الأخطل.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٦/ ٤٤.

فقال له جرير: أمَّا قولُك: شتمتُ عرضَك، فما يضرُّ البحر أن يشتمه منْ يغرقُ فيه.

وأمَّا قولك: أسهرتُ ليلك، فلو تركتني أنام لكان خيراً لك. وأمَّا قولُك: آذيتُ قومك، فكيف تؤذي قوماً، أنت تُؤدِّي إليهم الجزية؟».

وربَّما تلاحى المتلاحيان - وكلاهما من كبار الأمراء- في حضرة الخليفة بلا تحريض ولا إثارة، فيأخذُك العجبُ ممَّا تشهد وتسمع، لأن الله أسبغ عليهما أقبيةَ الإمارة، وأبيا إلا أن يتردَّيا أردية التبذُّل، وأدَّب ألسنتهما بأدبِ الإسلام، وأصرَّا على أن يَلَغا في مستنقع الجاهلية؛ فمضى أحدهما يشتم صاحبه فَيُشْتَم، ويفضحه فيفتضحُ معه، وكلاهما يهدمُ مجدَه بمعول أخيه.

اجتمع في مجلس معاويةَ بن أبي سفيان الوليدُ بن عقبة الأمويّ [ت: ٦٤هـ] - وكان من رجالات الأمويين فصاحةً وكرماً، ووالي المدينة لمعاوية ثم ليزيد - وعمرو بن سعيد بن العاص الأموي [ت: ٧٠هـ] وكان عمرٌو هذا من الخطباء البلغاء، ووالياً مكةَ في الفترة نفسها. وكلاهما كان على حظٍّ من الفضل، غيرَ أنهما لم يجدا أدنى غضاضة من الترامي بالسباب، والتمرُّغ بالمخازي، حتى زجرهما معاويةُ على ما أُثِر عنه من حِلْمٍ وصبر.

ذكر أبو علي القالي[1] «أن الأبرش الكلبي سمع الوليد بن عقبة، وعمرَو بن سعيد بن العاص يتلاحيان في مجلس معاوية، رحمه الله، فتكلَّم الوليد، فقال له عمرو: كَذَبْتَ أو كُذِبْتَ.

فقال له الوليد: اسكت يا طليقَ اللسان، يا منزوعَ الحياء، ويا ألأَمَ أهلِ بيته؛ فَلَعمري لقد بلَغَ بك البخلُ الغايةَ الشائنة المُذِلَّة لأهلها، فساءتْ خلائقك لبخلك، فمنَعْتَ الحقوق، ولزمتَ العقوق. فأنت غيرُ مشيدِ البنيان ولا رفيع المكان.

فقال له عمرو: والله إن قريشاً لتعلمُ أني غيرُ حلو المذاقة، ولا لذيذُ الملَاكَة[2]، وإني لكالشجا[3] في الحلق. ولقد علمتَ أني ساكنُ الليل، داهيةُ

(١) الأمالي ٢/ ٣٧.
(٢) اللوك والمضغ.
(٣) ما اعترض الحلق من عظم أو عود أو غيرهما.

النهار، لا أتبعُ الأفياء، ولا أنتمي إلى غير أبي، ولا يُجْهَل حسبي. حامٍ لحقائق الذِّمار[١]، غيرُ هَيوب عند الوعيد، ولا خائفٍ رعديد. فلِمَ تعيِّر بالبخل، وقد جُبلت عليه؟ فلعمري لقد أورثتك الضرورة لؤماً، والبخل فحشاً، فقطعت رحمَك، وجُرْت في قضيتك، وأضعتَ حقَّ من وَلِيتَ أمره.فلستَ ترجى للعظائم، ولا تُعْرف بالمكارم، ولا تستعفُّ عن المحارم. لم تَفْدِر[٢] على التوقير، ولم يُحكَمْ منك التدبير.

فأُفحِمَ الوليد. فقال معاوية- وساءَه ذلك -: كُفًّا، لا أبا لكما، لا يرتفع بكما القولُ إلى ما لا نريد.

ثم أنشأ عمرٌو يقول:

وليدُ إذا ما كنتَ في القوم جالساً فكن ساكناً منك الوقارُ على بالِ
ولا يبدرنَّ الدهرَ من فيك منطقٌ بلا نظر قد كان منك وإغفال».

لقد فشت فاشيةُ الملاحاة في العصر الأموي حتى أصابت عدواها من عُرفوا برجاحة العقل. قال أبو علي القالي[٣]: «جرى بين أبي الأسود الدؤلي وبين امرأته كلام في ابن كان لها منه، وأراد أخذه منها، فسار إلى زياد، وهو والي البصرة.

فقالت المرأة: أصلحَ الله الأمير، هذا ابني، كان بطني وعاءَه، وحِجْري فِناءَه، وثديي سقاءَه. أكلؤُه[٤] إذا نام، وأحفظُه إذا قام، فلم أزلْ بذلك سبعةَ أعوام، حتى إذا استوفى فِصالَه، وكملت خصالُه، واستوكعتْ[٥] أوصالُه، وأمَّلْتُ نفعه، ورجوتُ دفعه، أراد أن يأخذه مني كرهاً. فآذِني[٦] أيها الأمير، فقد رامَ قَهْري، وأراد قسري.

فقال أبو الأسود: أصلحكَ الله. هذا ابني، حملتهُ قبل أن تحملَه، ووضعْتُه

(١) كل ما يلزم الرجل حفظه وحمايته والدفاع عنه.
(٢) الفدر: القطع، ربما كانت (تقدر).
(٣) الأمالي ٢/ ١٢.
(٤) أحرسه وأحفظه.
(٥) اشتدت.
(٦) قوّني وأعني.

قبل أن تضعَه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في أَوَدِه[١]، وأَمنحه عِلمي، وألهمه حِلمي، حتى يكمل عقلُه، ويستحكم فتلُه[٢].

فقالت المرأة: صدق أصلحك الله، حمله خِفّاً، وحملته ثقلاً، ووضعه شهوةً، ووضعته كرهاً.

فقال له زياد: اردُدْ على المرأة ولدها، فهي أحقُّ به منك، ودَعْني من سَجْعِك».

إن هذه الملاحاة بين الأبوين سائغة، لأنها ارتقت بالحوار من التشاتم إلى التحاكم، فغدا كأنه مرافعةٌ قانونية في محكمة شرعية. أمَّا حينما يُسِفُّ المتلاحيان -وأحدهما معاويةُ بن أبي سفيان - فأنت لا تلوم إلَّا البادئ المعروف بالدهاء.

«قدم جارية بن قُدامة السعديّ -وكان قد شهد صفين مع عليّ - على معاوية. فقال له معاوية: من أنت؟

قال: جاريةُ بنُ قدامة.

قال: وما عسيْتَ أن تكون؟ هل أنت إلَّا نحلةٌ؟

قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فقد شبَّهتني بها حاميةَ اللَّسْع،حلوةَ البساق. والله ما معاويةُ إلا كلبةٌ، تُعاوي الكلابَ. وما أميَّةُ إلا تصغيرُ أمة. فبهت معاوية»[٣].

---

(١) اعوجاجه.

(٢) يقوى عوده ويشتد.

(٣) مختصر تاريخ دمشق ٥/ ٣٦٥.

(٢)
المفاخرة

أ- المفاخرة في اللغة

قال ابن منظور[١]: «تفاخر القومُ: فَخَر بعضُهم على بعض، والتفاخرُ: التعاظم، والتفخُّرُ: التعظُّم والتكبُّر. ويقال: فلان متفخِّر متفجِّس. وفاخره مفاخرةً وفخاراً: عارضه بالفخر، ففخَرَه... وهو نشرُ المناقب، وذكر الكرام بالكرم... وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨/٣١] الفخور: المتكبِّر. وفاخرَه مفخَرَة، يفخُرُه فخراً: كان أفخرَ منه، وأكرمَ أباً وأمّاً».

والملاحاةُ والمفاخرةُ- وكلتاهما نِحْلة جاهليةٌ بغيضةٌ- تذكّران القارئَ نحلةً ثالثة تقاربُهما في المسلك والخُلق والدلالة والضَّلالة، وهي المنافرة.

قال ابنُ منظور[٢]: «المنافرةُ: المفاخرة والمحاكمة. والمنافرةُ: المحاكمة في الحسب. قال أبو عبيد: المنافرةُ أن يفتخرَ الرجلان كلَّ واحدٍ منهما على صاحبه، ثم يحكِّما بينهما رجلاً؛ كفعل عَلْقَمةَ بنِ عُلاثة مع عامر بن الطفيل حين تنافرا إلى هرِم بن قطبة الفزاريّ. وفيهما يقولُ الأعشى يمدح عامرَ بن الطفيل، ويحملُ على علقمة بن علاثة:

قد قلتُ شعري، فمضى فيكما واعترف المنفورُ للنافرِ

والمنفورُ: المغلوبُ، والنافرُ: الغالبُ».

قد تقول: لماذا آثرتم المُلاحاةَ والمفاخرة على المعاداة والمنافرة، وأربعُ الكلمات متقارباتُ الدلالات إن لم يكنَّ مترادفات؟

---

(١) اللسان/ فخر.

(٢) اللسان/ نفر.

والجوابُ أن في العربية من بناتِ هذه الأسرة اللغوية مترادفاتٍ يشقُّ علينا إحصاؤُهن وتمييزُ معانيهن بعضِها من بعض. فابنُ منظور ذكرَ من هذه الزمرة: المقاولةَ، والمخاصمةَ، والمنازعة، والمشاتمة، والملاومة. ونورُ الدين بن نعمة الله الجزائري أضاف إليهن المجادلةَ والمناظرة. وحاول أن يميزَ لفظاً من لفظ، فما أصاب إلَّا يسيراً من صواب. وأبو البقاء الكفويُّ حاول المحاولةَ نفسَها فما وجدْنا في كلامه غير التكرار، وتفسير الألفاظ بما يرادفها.

وبالاحتكام إلى كتب الأدب التي روت نصوصَ العصر الأموي - ومنها البيانُ والتبيين، والأمالي، والكاملُ، والعقد الفريد- تبيَّن لنا أن مصطَلحي الملاحاة والمنافرة أشيع من سواهما في هذه الكتب، وأن مصطلح المنافرة بقي إلى العصر الجاهلي أقرب، على النحو الذي تجلَّى فيما روى ابن منظور عن علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل.لكن تغير المصطلح لا يعني تغير المعاني. فما أهمُّ المعاني التي تضمنتها المفاخرة في العصر الأموي؟

ب- معاني المفاخرة

لو ضربت المفاخرةَ على محكِّ النقد لم تجد في معانيها غيرَ ما كان شائعاً في مربد البصرة من معاني التفاخر والتناقض. كأنَّ ما كان يتقارضه جريرٌ والفرزدق والأخطلُ وأمثالهُم من شعراء النقائض انتقل من منظومهم إلى المنثور، فلهج به الفصحاء ممَّن يتعصَّبون لبني أمية، أو يتعصَّبون عليهم، وعُمرت به المجالسُ، وراح أهل اللَّسَن يتبارَوْن في تجويده كما كان الجاهليون يتبارَوْن فيما يتنافرون به.

كان القدر الأعظم من المفاخرات مزيجاً من أفكار جاهلية وإسلاميَّة، إذْ كان المُفاخر الأمويُّ يعتزُّ بعراقة النسب، وشرف القبيلة، ورسوخ المجد، وانتصار قومه على أعدائهم، فيذكر ما كان لهم من أيام على مناوئيهم، ويباهي بكثرة العدد، والشجاعة في الحرب، والكرم في السلم، ويرمي خصومَه بأضداد ما يباهي به، لأنه يجد في تحقير الخصم مفخرة له. ثم يشفع هذه المجموعة من الشيم والقيم بما استجدَّ من شيم وقيم أرقى من الأولى وأبقى، تمَّم بها الإسلام مكارم الأخلاق.

روى ابن عساكر[١] أن الضَّحاك بن المنذر بن سلامة بن ذي فائش الحميريَّ - وكان وسيماً جسيماً، وكان أبوه وجدُّه ملكيْنِ - دخل على معاوية بن أبي سفيان، فاستشرفه معاوية حين نظر إليه. «ثم قال له: ممَّن الرجل؟

فقال: من فرسان الصّياح، المُلاعبين بالرماح، المبارين للرياح[٢]. وكان معاوية متَّكئاً، فاستوى قاعداً وقال: أنت إذن من قريش البطاح.

قال: لستُ منهم. ولولا الكتابُ المنزل، والنبيُّ المرسل، لكنت عنهم راغباً، ولقديمهم عائباً. قال: فأنت إذن من أهل الشراسة[٣]، ذوي الكرم والرئاسة، كنانة بن خزيمة. قال: لستُ منهم، وإني لأطمو[٤] عليهم ببحر زاخر، وملكٍ قاهر، وعزّ باهر، وفرع شامخ، وأصل باذخ[٥].

قال: فأنت إذن من جَمْرة[٦] معدٍّ، وركنها الأشدّ، أهل الغارات بني أسد.

قال: لستُ منهم، لأن أولئك عبيدٌ، ولم يبق منهم إلَّا الشريدُ.

قال: فأنت إذن من فرسان العرب، المُطْعِمين في الكرب، أهل القباب الحُمْر، تميم بن مُرّ.

قال: لست منهم، لأن أولئك بدؤوا بالفرار، حين أجحرتهم[٧] منَّا الأحجار.

قال: فأنت إذن من خيار بني نزار، وأحماهم للذمار، وأوفاهم بذمة الجار، بني ضبة».

على هذا النحو من الحوار المسجوع مضى معاوية يسأل ضيفه عن قبيلته، فذكر أشهر القبائل العربية، وراح يطري كلَّ قبيلة بمكارمها، لعل الضحاك ينتمي إلى إحداها، فتحدث عن ثقيف، وهذيل، وهوازن، وعبس، وسليم،

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١١/ ١٥٠.

(٢) أراد: كرماء أسخياء.

(٣) عسرو الأخلاق شديدو المخالفة.

(٤) لأرتفع وأعلو.

(٥) عالٍ.

(٦) القبيلة التي لا تنضم إلى أخرى ثقة بقوتها ومنعتها.

(٧) ألجأتهم.

والضيف يتعالى ويتغطرسُ، ويتباهى ويتفجَّس، ويذمُّ قبائل العرب، فلمَّا أعياه «قال له معاوية: فأنت إذن من أوغادِ[١] اليمانيين الذين لا يعقلون شيئاً.

قال: أنا ابن ذي فائش. مهلاً يا معاوية، فإن أولئك كانوا للعرب قادةً، وللناس سادة، وملكوا أهلَ الأرض طوْعاً، وأجبروهم كرهاً، حتى دانت لهم الدنيا بما فيها. وكانوا الأربابَ وأنتم الأذناب، وكانوا الملوك، وأنتم السوقةُ، حتى دعاهم خيرُ البرية بالفضل والتحية محمدٌ ﷺ؛ فعزَّروه[٢] أيَّما تعزير، وشمَّروا حوله أيَّما تشمير، وشهروا دونه السيوف، وجهَّزوا الألوف بعد الألوف، وجادوا له بالأموال والنفوس، وضربوا مَعَدَّاً حتى دخلوا في الإسلام كرهاً، وقتلوا قريشاً يوم بدر، فلم يطلبوهم بثأر. فأصبحت يا معاوية تحمل ذلك علينا حِقداً، وتشتمنا عليه عَمْداً، وتقذف بنا في لُجَج البحار، وتكفُّ شرَّك عن بني نزار. ونحن منعناك يوم صِفّين، ونصرناك على الأنصار والمهاجرين، وآثرناك على الإمام التقيّ، والوصيّ الوفيّ، ابن عمِّ النبيّ ﷺ. فبنا عَلوت المنابر ولولا نحن لم تَعْلُها، وبنا دانت لك المعاشر، ولولا نحن لم تدِنْ لك. فأنكرت منا ما عرفت، وجهلت منا ما علمت، فلولا أنَّا كما وصفتُ، وأحلامُنا كما ذكرت، لمنعناك العهدَ، ولشددْنا لغيرك العقد[٣]، ولقُرِعْتَ قرعاً، تتطأطأُ منه، وتتقبَّض...».

وفي هذه المفاخرة أمورٌ يحسنُ ذكرها:

أولُها أن القسمَ الأكبر منها ينطوي على ما كانت المنافرةُ الجاهليةُ تنطوي عليه من فخر وهجو. فمعاوية كان يُطْري من القبائل ما يُطري، والضحَّاك يُزْري بما يُطريه معاوية ما يُزري، فأحدُهما يعظِّم، والآخر يحقّر، ومعاني التعظيم والتحقير جاهليةٌ خالصة، لا يُذكر فيها الإسلامُ، ولا يُشار إلى ما حلَّل وحرَّم. فهي على هذا الأساس منافرةٌ ومفاخرةٌ في وقت واحد.

وثانيها أن الرعية في الدولة الأموية كانت على حظٍّ عظيم من الجراءة والصراحة والحرية في التعبير، لا تجد أدنى غضاضة في محاورة الخليفة،

(١) الأذلاء الضعفاء.

(٢) نصروه وأعانوه.

(٣) يريد عقد الخلافة.

ولا تتحرَّجُ من تسفيه آرائه، والردِّ عليه ردّاً مفحماً، ينال من مكانته ومن سلطته.

وثالثها أن معاوية - على ما كان يعُرف عنه من ذكاء ودهاء - لم يُحْسن القول في كلامه على أهل اليمن. فأهلُ اليمن نصروه وعزَّروه، ولولا تأييدهم ما ارتفعت له راية، فكيف يقول: إنهم أوغاد، لا يعقلون شيئاً؟

والرابع أن الضحاك كان أذكى من معاوية وأدهى، لأنه استطاع - وهو سوقةٌ لا ملك - أن يقلب طرفي المعادلة، فيتعالى ويدلّ بماضيه على حاضر الخليفة. كما استطاع أن يفنِّد ما كان معاويةُ يطري به قبائل العرب تفنيداً مؤيَّداً بالحجج التاريخية، وأن يردَّ على معاوية ردّاً أفحمه، حتى اضطره إلى النطق بما لا يليق بمثله.

والخامسُ أن حِلم معاوية جاوز الحدَّ، حتى إنك لتشفق عليه من تهديد الضحَّاك ووعيدِه حينما قال له: «فلولا أنَّا كما وصفتُ، وأحلامنا كما ذكرت لمنعناك العهدَ، ولشددْنا لغيرك العقدَ ولقُرِعْتَ قرعاً، تُتَطَأْطأُ منه وتتقَّبض» إنك لتشفقُ عليه هنا، كما أشفقتَ عليه هناك، حينما قال له جارية بن قدامة: «والله ما معاويةُ إلَّا كلبة تعاوي الكلاب، وما أمية إلَّا تصغيرُ أمة». وإذا قرنت هذه الهفوة بتلك أيقنتَ أن لكلّ سيفٍ أكثرَمِنْ نَبْوَة، وأن لكل جوادٍ أكثرَ مِنْ كبوة.

ومن أجمل النصوص في هذا الباب مفاخرةٌ دارت رحاها بين عبدِ الله بن الزبير ومعاويةَ بن أبي سفيان، قد برئتْ من سفاهة المنافرة، وسَمَتْ عن المناكرة، وصوَّرت فترة تاريخية هامَّة من تاريخنا العربيِّ أحداثاً وشخوصاً وقيماً ومُثُلاً عليا. ولمَّا كانت أوضحَ من أن تحتاج إلى توضيح، فقد رأينا أن نَضَعَها بين يدي القارئ لكي يقتطفَ من ثمرها الجنيِّ ما أَيْنعَ، ويرتشفَ من برودها الشروبِ ما عَذُب. وإليك نصَّ المحاورة كما رواه ابن عبد ربه[1]:

«دخل الحسينُ بن علي يوماً على معاويةَ، ومعه مولىً له، يقال له ذكوان. وعند معاوية جماعةٌ من قريش فيهم ابن الزبير. فرحَّب معاويةُ بالحسين، وأجلسه على سريره. وقال: ترى هذا القاعدَ - يعني ابنَ الزبير - فإنه ليدركه الحسدُ لبني عبد مناف.

فقال ابنُ الزبير لمعاوية: قد عرفنا فضلَ الحسين وقرابته من رسول الله ﷺ.

(١) العقد الفريد ٤/ ١٥.

لكنْ إذا شئت أن أعلمك فضلَ الزبير على أبيك أبي سفيان فعلت.

فتكلَّم ذكوان مولى الحسين بن علي، فقال: يا بنَ الزبير، إن مولاي ما يمنعه من الكلام ألَّا يكون طَلْق اللسان رابطَ الجنان، فإن نطقَ نطقَ بعلم، وإن صمتَ صمتَ بحلم، غير أنه كفَّ عن الكلام، وسبق إلى السنان، فأقرَّت بفضله الكِرام، وأنا الذي أقول:

فيم الكلامُ لسابق في غاية ... والناسُ بين مقصِّر ومبلِّدِ؟
إن الذي يجري ليدرك شأوَه ... يُنمى بغير مسوَّد ومسدَّد
بل كيف يُدْرَك نورُ بدرٍ ساطع ... خيرِ الأنام وفرعِ آل محمدِ

فقال معاويةُ: صدق قولُك يا ذكوانُ، أكثرَ الله في موالي الكرام مثلكَ.

قال ابنُ الزبير: إن أبا عبد الله سكتَ، وتكلَّم مولاه، ولو تكلَّم لأجبْناه، أو لكفَفْنا عن جوابه إجلالاً له، ولا جواب لهذا العبد.

قال ذكوان: هذا العبدُ خيرٌ منك. قال رسول الله ﷺ: «مَوْلَى القوم منهم» فأنا مَوْلى رسول الله ﷺ، وأنت ابنُ الزبير بن العوَّام بن خويلد، فنحنُ أكرمُ ولاء، وأحسنُ فعلاً.

قال ابنُ الزبير: إني لستُ أجيبُ هذا، فهاتِ ما عندك يا معاوية.

فقال معاوية: قاتلَك الله، يا بن الزبير، ما أعياك وأبغاك! أتفخر بينَ يديْ أمير المؤمنين وأبي عبدِ الله!؟ إنك أنت المتعدِّي لطورك[١]، الذي لا تعرفُ قدرك. فقس[٢] شبرك بفترك، ثم تعرَّف كيف تقع بين عرانين[٣] بني عبد مناف. أما والله لئن دُفِعْتَ في بحور بني هاشم وبني عبد شمس لقطَّعتْك بأمواجها، ثم لترمينَّ بك في لُججها. فما بقاؤك في البحور إذا غمرتك، وفي الأمواج إذا بهرتك؟ هنالك تعرف نفسَك، وتندمُ على ما كان من جرأتك، وتمنَّى ما أصبحت فيه من أمان، وقد حيلَ بين العير والنزوان[٤].

فأطرق ابن الزبير مليّاً، ثم رفع رأسَه، فالتفتَ إلى مَنْ حوْلَه، ثم قال:

---

(١) حدّك وقدرك.
(٢) كأنما أراد: قدر منزلتك بنفسك.
(٣) سادة، أشراف.
(٤) هذا مثل يضرب للأمر يحول دون تحقيقه عائق، النزوان: الوثوب.

أسألكم بالله. أتعلمون أنَّ أبي حواريُّ رسول الله ﷺ، وأن أمي أسماءُ بنت أبي بكر الصديق؟ وأمه هند آكلةُ الأكباد. وجَدّي الصدِّيقُ، وجدّه المشدوخُ[١] ببدر، ورأس الكفر. وعمَّتي خديجةُ ذاتُ الخطر[٢] والحسب، وعمته أم جميل حمالة الحطب. وجدتي صفية، وجدته حمامة. وزوج عمتي خير ولد آدم محمد ﷺ وزوج عمته شرُّ ولد بني آدم أبو لهب، سيصلى ناراً ذات لهب. وخالتي عائشةُ أمُّ المؤمنين، وخالته[٣] أشقى الأشقين. وأنا عبدُ الله، وهو معاوية!؟

قال له معاوية: ويحَك يا بنَ الزبير، كيف تصفُ نفسَك بما وصفتها؟ والله ما لك في القديم مِنْ رياسة، ولا في الحديث من سياسة، ولقد قُدْناك وسُدْناك قديماً وحديثاً، لا تستطيعُ لذلك إنكاراً، ولا عنه فراراً. وإن هؤلاء الخصومَ ليعلمون أنَّ قريشاً قد اجتمعتْ يومَ الفجار على رياسة حَرْب بنِ أمية، وأن أباك وأسرته تحت رايته، راضون بإمارته، غير منكرين لفضلِه، ولا طامعين في عزْلِهِ. إنْ أمَرَ أطاعوا، وإن قال أنصتوا.

فلم تزلْ فينا القيادة، وعزُّ الولاية حتى بعث الله عزّ وجلَّ محمّداً ﷺ، فانتخبه من خير خلقه، من أسرتي لا من أسرتك، وبني أبي لا بني أبيك، فجحدته قريش أشدَّ الجحود، وأنكرته أشدَّ الإنكار، وجاهدته أشدَّ الجهاد إلَّا مَن عصم الله من قريش. فما سادَ قريشاً ولا قادهم إلَّا أبو سفيان بنُ حرب، فكانت الفئتان تلتقيان: ورئيسُ الهدى منَّا، ورئيسُ الضلالة منا. فمهديكم تحت راية مَهْديِّنا، وضالُّكم تحت راية ضالِّنا، فنحنُ الأربابُ، وأنتم الأذنابُ، حتى خَلَّصَ الله أبا سفيان بنَ حرب بفضله من عظيم شركه، وعصمه بالإسلام، مِن عبادةِ الأصنام. فكان في الجاهلية عظيماً شأنُه، وفي الإسلام معروفاً مكانُه. ولقد أُعطيَ يوم الفتح ما لم يُعْطَ أحدٌ من آبائك، وإن مناديَ رسولِ الله ﷺ نادى: مَنْ دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دارَ أبي سفيانَ فهو آمن، فكانت داره حرماً، لا دارُك ولا دارُ أبيك.

وأمَّا هند فكانت امرأةً من قريش في الجاهلية عظيمةَ الخطر، وفي الإسلام كريمةَ الخبر.

---

(١) عتبة بن ربيعة جدّ معاوية لأمه.

(٢) القدر والشرف.

(٣) فاطمة بنت عتبة.

وأمّا جدُّك الصدِّيقُ فبتصديق عبد مناف سُمِّي صديقاً لا بتصديق عبد العُزَّى. وأمَّا ما ذكرت من جدي المشدوخ ببدر، فلعمري لقد دعا إلى البِراز هو وأخوه وابنُه، فلو برزْتَ إليه أنت وأبوك ما بارزوكم، ولا رأَوْكم أكفاءً، كما قد طلب ذلك غيرُكم، فلم يقبلوهم، حتى برز إليهم أكفاؤهم من بني أبيهم، فقضى الله مناياهم بأيديهم. فنحن قتَلنْا، ونحن قُتِلْنا، وما أنت وذاك؟

وأمّا عمَّتُك أمُّ المؤمنين فبنا شرفَتْ، وسُمِّيت أمَّ المؤمنين. وخالتُك عائشة مثلُ ذلك. وأمَّا صفيَّةُ فهي أَدْنَتْك من الظلّ، ولولاها لكنت ضاحياً[١].

وأمَّا ما ذكرت من عمِّك وخال أبيك سيِّد الشهداء، فكذلك كانوا، رحمَهم الله، وفَخْرُهم وإرثُهم لي دونك، ولا فخرَ لك فيهم، ولا إرثَ بينك وبينهم. وأمَّا قولُك: أنا عبدُ الله، وهو معاوية، فقد علمت قريش أيُّنا الأَجْوَدُ في الإزم[٢]، وأمضى في القدم[٣]، وأمنع للحرم.

لا، والله ما أراك منتهياً حتى تروِمَ من بني عبد مناف ما رام أبوك، فقد طالبهم بالذحول[٤]، وقدم إليهم بالخيول، وخدعتم أمَّ المؤمنين، ولم تراقبوا رسولَ الله ﷺ إذْ مددتم على نسائكم السجوفَ[٥]، وأبرزتم زوجته للحتوف، ومقارعة السيوف. فلَمَّا التقى الجمعان نكصَ أبوك هارباً، فلم يُنجه ذلك أن طحنه أبو الحسين بكلكله طحْنَ الحصيد بأيدي العبيد.

وأمَّا أنت فأفلتَّ بعد أن خَمْشتْك براثنُه، ونالتك مخالبُه. وايمُ الله ليقوِّمَنَّك بنو عبد مناف بثقافها، أو لتصيحنَّ منها صياحَ أبيك بوادي السباع[٦]، وما كان أبوك المرهوبَ جانبُه، ولكنه كما قال الشاعر:

أكيلةُ سِرْحانٍ، فريسةُ ضيغمٍ فقضقضه بالكفِّ منه وحَطَّما»[٧]

---

(١) بارزاً للشمس.
(٢) الشدائد والملمات.
(٣) المضي إلى الأمام في الحرب.
(٤) الثارات.
(٥) الأستار.
(٦) الموضع الذي قتل فيه الزبير بن العوام رضي الله عنه.
(٧) الأكيلة: الفريسة، قضقضه: كسره.

جـ- من سمات الملاحاة والمفاخرة

جلُّ ما قلنا في المناظرة والمحاورة يمكنُ قولُه في الملاحاة والمفاخرة. فبينَ هذه الأنماط الأدبية من الاتِّفاق فوق ما بينها من الافتراق، حتى كأنَّهن جنسٌ أدبيٌّ واحد، إذْ تلتقي في الشكل كما تلتقي في المضمون، ويوحِّدُ بينها أسلوبُ الحوار، كما تقاربُ بينها طبيعةُ المعاني. فإن أبيتَ إلا أن تقع على فرق تسوِّغ به تمييزَ بعضِها من بعض، ولو على سبيل التقريب لا على سبيل الدقة، فليكن هذا الفرق الذي تميز به النمطين اللاحقين من النمطين السابقين نفسيّاً لا فكريّاً، ولا فنيّاً.

ولَمَّا كانت خَلَجَات النفس عرضةً للاشتعال والانطفاء، والثورة والخمود، ولَمَّا كانت القدرة على رصدها وقياسِها مرهونةً برهافة التحسُّس عند الدارس، فإن ضبطها بمعيار يحدِّد طبائعها ونوازعها، ودواعيها ومراميَها قد يشقُّ على الدارس ويدقّ، لزئبقية المادَّة التي تتألف منها عواطفُ الإنسان، ولخفاءِ المسالك التي تتسرب فيها، وهي ترحلُ من قلب المُناظر أو المُلاحي، إلى عقل السامع أو الدارس.

فما أبرزُ السمات الفكرية والفنية التي اتَّسمتْ بها الملاحاةُ والمفاخرة، سواءٌ أكانت هذه السّمات ممَّا ورد في باب المناظرات والمحاورات أم كانت ممَّا لم يرد؟

١) يقظة السفاهة الجاهلية في الأفكار

الملاحاةُ والمفاخرة خلَّتان جاهليتان، استنكرهما الإسلامُ، سواءٌ أكانتا بالمهذَّب من القول أم الفاحش. وفي بداية هذا الباب وضعنا بين يديك من الآيات والأحاديث ما يدلُّ دلالاتٍ قاطعةً على أن النبي ﷺ حرص أشدَّ الحرص على أن يستلَّ السخائم من الأفئدة، والشتائم من الألسنة، وأن ينشئ مجتمعاً متعاوناً على البرِّ والتقوى، تقيَّ السرائر، نقيَّ الحناجر.

ثم انقضى عصرُ النبوة والخلافة الراشدة، وانقضى بانقضائه زمانُ التقوى في الصدور، والنقاء في الألسنة، وأباح بعضُ الأمراء لألسنتهم أن تلَغَ في التلاحي والتفاخر، ولأسماعهم أن تصغي إلى الشتم المفترى، والنفج الكاذب. وجاوزوا الإصغاء إلى التحريض، والتحريضَ إلى السعي بالنميمة، وكلُّ ذلك من خلق الجاهلية.

قال أبو الفرج الأصبهاني[١]: «دخل أنس بن زنيم على عبيد الله بن زياد، وعنده حارثة بن بدر. وكان بينهما تعارضٌ ومقارضة قبل ذلك. فلما خرج أنس قال عبيدُ الله لحارثة: أيُّ رجل هو أنس عندك؟

قال: هو عندي - أصلحَ الله الأميرَ - كما قلت فيه:

يبيتُ بطيناً[٢]من لحوم صديقه ... خميصاً[٣]من التقوى ومن طلب الحمدِ
ينامُ إذا ما الليلُ جَنَّ ظلامُه ... ويسري إلى حاجاته نَوْمَةَ الفهد
يُراعي عذارى قومه كلَّما دجا ... له الليلُ، والسوءات كالأسد الورد
جريئاً على أكلِ الحرام وفعله ... جباناً عن الأقران معترم الكرد[٤]

فلَمَّا كان من الغد، دخل أنس على عبيد الله، فقال له عبيد الله بحضرة حارثة: إني سألت هذا عنك، فأخبرني بما كرهتُه لك، ولم أكنْ إخالُك كما نَعَتَ لي.

فقال: أصلح الله الأمير، إن يكنْ قال خيراً فأنا أهلُه، وإن قال غيرَ ذلك، فلم يَعْدُ ما هو أولى به مني. أما والله لو كان -أصلحَ الله الأمير- حقّاً لحفظ غيبتي. فلقد أوليته حُسْنَ الثناء بما ليس أهله، والله يعلمُ أني كنت كاذباً. وما إخالُ ما قاله فيَّ إلَّا عقوبةً، فإن عقوبة الكذب حاضرةٌ وثمرة الكذب الندامة...».

٢) إثارة العصبية القبلية

إن أسوأ ما اتَّسمت به الملاحاةُ والمفاخرة من سمات الجاهلية بعثُها العصبيَّةَ القبليةَ من مرقدها، وأسوأُ ما في هذا البعث أنه كان يجري على مَسْمع من الحكام ومشهد، وأن الأمراء والخلفاء كانوا يحرِّضون جلساءهم على التنافر أو يشاركونهم فيه، كأنهم كانوا يَرَوْن أن هذا الضرب من التسلية الأدبية الجارحة يُضعف المقاومة السياسية، ويفرق الأمة شيعاً وأحزاباً، ويمكّن لهم في الأرض. فيتغاضون عنه، أو يشجعون المتلاحين أو المتفاخرين عليه.

---

(١) الأغاني ٨/ ٤٠٤.
(٢) ممتلئ البطن.
(٣) ضامراً.
(٤) العنق.

قال ابن عساكر[١]: «تلاحى عمرو بنُ عبد عمرو الثقفي، وعطاءُ بن أبي صيفي الثقفي المالكيّ في مجلس يزيد بن معاوية. وكان عطاءٌ قد غمز بقوم عمرو، وعابهم.

قال عمرو: والله لتنتهينَّ يا بن أبي صيفيّ عمّا أسمع من كلامك، أو لأوردنّك شعاباً، تجدها يباباً، لا تنبت إلا سلعاً[٢] وصاباً[٣].

قال ابن أبي صيفي: إنك والله إن ترد شعابي تلقها مالكية مخصاباً، تبهق[٤] مياهاً عذاباً، وتلف أهلها ميوساً[٥] صعاباً.

قال عمرو: بل إن أَرِدْها ألقها الرياحَ الزعزع، والذئابَ الجوَّع، بيداء بلقع، لا تدفع كفّاً بمدفع.

قال ابن صيفيّ: إن تَرِدْها تَلْقَها، والله، طيبة المَرْتَع[٦]، آمنة المَرْبع[٧]، ليِّنة المهجع، تُقطّع مثلك يومَ المجمع[٨]».

ولعلَّك لاحظت أنَّ الملاحاة شطرتْ بني ثقيف- وهم حيٌّ واحد- شطرَيْن مُتنافسين متخاصمين، وأن عَلَمين من أعلام الحيينِ نَهَدا للاختصام، والترامي بسهام الكلام، فجعل كلٌّ واحد يُعلي نفسه ووطنه وقوْمه، ويحقِّر خصمه ووطنه وقومه، والخليفةُ يزيدُ يسمع الهَجْو والفخرَ، فلا يضيقُ صدره، كأنه يتسلَّى بكبشين ينتطحان.

وإذا خطر لك أ ن تعلِّل إغضاءَ يزيد عن تلاحي جليسَيْه وإثارتهما البغضاءَ، بأنه لم يُؤتَ مثلَ ما أُوتي أبوه معاويةُ من حِلْم ودهاء، فتذكَّرْ ما ذكرنا قبلُ ما فاخر به معاويةُ نفسُه الضحَّاكَ بنَ منذر بن سلامة بن ذي فائش الحميري،

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٩/ ٢٦١.
(٢) المُرّ.
(٣) العلقم.
(٤) كذا وردت وهي تصحيف تفهق تمتلئ وتسيل.
(٥) الميس: التبختر والاختيال.
(٦) مكان الرعي الخصب.
(٧) المنزل أو المكان الذي يقام فيه زمن الربيع.
(٨) اجتماع الناس.

وما تضّمنته المحاورةُ من فخر وهجوٍ، لم تنج منهما قبيلةٌ واحدة، حتى غدت مهرجاناً للعصبيَّات القبلية.

٣) البراعة في التصوير

قد يذهبُ بك الظنُّ إلى أن الملاحاةَ والمفاخرةَ فنَّانِ مُرتجلان، يصوغُهما الغضبُ العارض، والزهو المثار، فلا يتاح للملاحي والمفاخر أن يجوِّدا كما يجوّد شعراء النقائض، وهم يحككون ويثقفون، فيأتي منثورهم دون المنظوم. وظنك هذا يصدق على صغار المتلاحين والمتفاخرين، لا على البلغاء وأعلام البيان. روى أبو الفرج[١] أن حميدة بنت النعمان لاحت زوجها رَوْحَ بنَ زنباع، وكان أسودَ ضخماً، «فقالت: كيف تسودُ، وفيك ثلاثُ خصال؟ أنت من جذام، وأنت جبان، وأنت غيور.

فقال: أمَّا جذام فأنا في أرومتها، وبحسب الرجل أن يكون في أرومةِ[٢] قومه، وأمَّا الجُبْنُ فإنَّما لي نفسٌ واحدة، ولو كان لي نفسان لجُدْتُ بإحداهما. وأمّا الغَيْرةُ فهو أمرٌ، لا أحبُّ أن أشارك فيه. وإن المرءَ لحقيقٌ بالغيرة على المرأة مثلك الحمقاءِ الورهاءِ[٣]، لا يأمنُ أن تأتي بولده من غيرِه، فتقذفَه في حجْره».

إنك لا تتوقع من امرأة خرقاءَ وافرة اللحم والشحم أن تقولَ خيراً ممَّا قالت زوجُ رَوْح. أمَّا حينما يُلاحي عبدُ الله بن الزبير معاويةَ، ويصوِّر مروان بن الحكم، فإنه يجعلُ الكلمةَ الموجعة حربةً قاتلة، والأصلَ الشريفَ صخرةً صلبة، والمتطاولَ على سَرَاةِ القوم بعوضةً حائرة، أو حشرة عاثرةً.

قال الجاحظ[٤]: «لَمَّا نازع ابنُ الزبير مروان عند معاوية قال ابنُ الزبير: يا معاويةُ، لا تدعْ مروانَ يرمي جماهيرَ[٥] قريش بمشاقِصِه[٦]، ويضرب

(١) الأغاني ٩/ ٢٣٣.
(٢) أصل.
(٣) الخرقاء التي لا تحسن عملاً.
(٤) البيان والتبيين ٢/ ٩٢.
(٥) جماعات.
(٦) مشقص: النصل العريض أو السهم فيه نصل عريض.

صَفاتهم[١] بمعاوِله. فلولا مكانُك لكانَ أخفَّ على رقابنا من فراشة، وأقلَّ في أنفسنا من خَشاشة[٢]. ولئن مُلِّك أعنة خيلٍ تنقادُ له، ليركبنَّ منك طبقاً تخافه»[٣]. فهذا الكلام شعرٌ غير موزون.

٤) التوقيع بالسجع

إذا كان ابنُ الزبير قد ضَمَّن الملاحاةَ والمفاخرة أجملَ ما في الشعر، وهو التصويرُ، فإن نصوصاً أخرى وجدت في التوقيع بالتسجيع ما يُغنيها عن أوزان الخليل، فتعمَّدَتْه، حتى كأن المتلاحيَيْنِ أو المتفاخرينِ كانا يتباريان في تجويده. ومن هذا الضرب مفاخرةُ الضحَّاك ومعاوية التي روينا جانباً منها، وممَّا قال معاويةُ للضحَّاك[٤]:

«فأنت إذن من خيار بني نزار، وأحماهم للذِّمار، وأوفاهم بذمَّة الجار: بني ضبة.

قال: لست منهم، لأن أولئك رعاةُ البقر، وأهل البؤس والنكر، لا يُقرون الضَّيف، ولا يدفعون الحَيْف[٥].

قال: فأنت إذن من هوازن أهلِ القَسْر والقَهر، والنعم الدُّثر[٦].

قال: كلَّا، أولئك أهلُ الشرَّات، وعلاج الكرّات، شعر الرقاب[٧]، غبش[٨] الكلاب».

---

(١) الصفاة: الحجر الصلد الضخم كأنما أراد لا ينالهم بسوء.
(٢) ج الخشاش: حشرات الأرض وهوامها.
(٣) ليركبن منك مركباً صعباً وحالاً لا يمكن تلافيها.
(٤) مختصر تاريخ دمشق ١١/ ١٥٠.
(٥) الظلم.
(٦) كأنما أراد ذات الصوف والوبر.
(٧) كناية عن الشجاعة تشبيهاً لهم بالأسود.
(٨) ج أغبش: الذي يميل لونه إلى لون الرماد (بياض في كدرة).